ضيفة خاتون وسياستها تجاه الملوك الأيوبيين

م. د. نجلاء سفيان أحمد/مدرس

جمهورية العراق/ جامعة الموصل

كلية التربية للعلوم الإنسانية/ قسم التاريخ

البريد الإلكتروني Email : Njla.s@uomosul.edu.iq

الكلمات المفتاحية: ضيفة، خاتون، حلب، الأيوبيين، الملوك، حروب صليبية.

كيفية اقتباس البحث

أحمد ، نجلاء سفيان، ضيفة خاتون وسياستها تجاه الملوك الأيوبيين، مجلة مركز بابل للدراسات الانسانية، كانون الثاني ٢٠٢٤،المجلد:١٤ ،العدد:١ .

هذا البحث من نوع الوصول المفتوح مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي لحقوق التأليف والنشر (Creative Commons Attribution) تتيح فقط للآخرين تحميل البحث ومشاركته مع الآخرين بشرط نَسب العمل الأصلي للمؤلف، ودون القيام بأي تعديل أو استخدامه لأغراض تجارية.

مفهرسة في Indexed
IASJ

مسجلة في Registered
ROAD

Dayfa Khatun and Her Policy Toward the Ayyubid Governors

Dr. Najla Sufyan Ahmed

University of Mosul

College of Education for Human Sciences

Keywords : Dayifa, Khatun, Aleppo, Ayyubids, kings, Crusades.

How To Cite This Article

Ahmed, Najla Sufyan, Dayfa Khatun and Her Policy Toward the Ayyubid Governors, Journal Of Babylon Center For Humanities Studies, January 2024,Volume:14,Issue 1.

This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International License.

Abstract:

Dayfah Khatun is the most prominent lady of the Ayyubid House. She is the daughter of Al-Adil bin Ayyub, and the wife of Al-Zahir bin Saladin. She ruled for a time (634 - 640 A.H. / 1236 - 1242 A.D.) the city of Aleppo as a regent to her grandson, King Al-Nasir. She demonstrated political skill and shrewdness in the midst of a heated atmosphere of conflict between the rulers of The Ayyubid family, especially among her two brothers, Al-Kamil of Egypt and Al-Ashraf, the governor of Damascus and those who sided this or that party from the rest of the members of the Ayyubid family. Her brother Al-Kamil refused to acknowledge her regency to grand-son, denying that a woman had ever assumed power from the Ayyubid house. This hostility continued and threatened Dayfa position in Aleppo, and nothing save her from the only the sudden death of Al-Kamil in the year 635 A.H./1237 A.D. Then the whole Ayyubid rulers shifted towards her considering her as the head of the Ayyubid House, and they sought to gain her favor until her death in the year 640 A.H./1142 A.D.

This research aims to highlights about Dayfa rule and her political relation with the kings of the Ayyubid house and her struggle to defend Aleppo against the outside and demotic threats during her regency between 634 A.H. / 1236 A.D. and 640 A.H./ 1242 A.D. The main issue is her relations with the other branches of the Ayybid dynasty, mostly her brothers Al-Kamil and Al-Ashraf.

الملخص:

ضيفة خاتون هي أبرز سيدات البيت الأيوبي، فهي ابنة الملك العادل بن أيوب، وزوجة الملك الظاهر بن صلاح الدين، حكمت لبعض الوقت (٦٣٤ -٦٤٠ هـ / 6123 - ١٢٤٢ م) مدينة حلب بوصفها على حفيدها الملك الناصر وقد اظهرت حنكة سياسية ودهاء في وسط جو محتدم من الصراع بين ابناء الاسرة الايوبية في أقسى أوضاعه، ولاسيما بين اخوتها الملك الكامل والملك الأشرف ومن انحاز الى هذا الطرف او ذاك من بقية ابناء اسرة الايوبية. وهذه السياسة كانت مختلفة بين مقرب منها كأخيها الملك الأشرف ومنه ما وقف ضدها كالملك الكامل- صاحب مصر- الذي لم يرضى على أن تتولى حكم حلب فلم يسبق أن تولت إحدى النساء الحكم من البيت الأيوبي، واستمر هذا العداء حتى وفاته عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧ م ، حيث انقلبت الموازين وتحولت سياسة الملوك صوب تأييد ضيفة خاتون واستقرت الأوضاع . ثم جاءت وفاة أخيها الملك الأشرف ومن بعده أخوه الملك الكامل، فأصبحت كبيرة البيت الأيوبي وسعى الملوك الأيوبيون لكسب رضاها حتى وفاتها عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢ م . ولأهمية هذه التحولات في المواقف والولائات السياسية على جميع الأطراف وما أنتجته من أمور تمحور البحث حوله لأهمية ذلك.

المقدمة:

غالباً ما يوصف التاريخ الإسلامي بأنّه تاريخ رجال فقط، وأن الرجال وحدهم من صنعوا تاريخه، لكن المتمعن في دراسة هذا التاريخ يطلعنا على بروز دور المرأة المسلمة في مواقف معينة من التاريخ إلى جانب الرجال لا بل تفوقها عليه أحياناً في حسن تدبيرها وفي هيبتها وعلو مكانتها، وإذ كانت أسرع الأمثلة إلى الأذهان قصة شجر الدر فإن هناك شخصيات أخرى لعبت أدواراً لا تقل عن شجر الدر إن لم تزد عليه، وفي مقدمتهم الملكة الأيوبية ضيفة خاتون ابنة الملك العادل التي ارتقت إلى منزلة كبيرة بين شخصيات العهد الأيوبي الذي تميز أصلا بظهور شخصيات عظيمة مثل عمها صلاح الدين الأيوبي، ووالدها الملك العادل وزوجها الملك الظاهر واخوها الملك الكامل .

لقد لعبت هذه الملكة دوراً سياسياً خطيراً في مرحلة حرجة من التاريخ الأيوبي وأصبح لها مكانة مميزة من خلال توليها حكم حلب وفرضها هيبتها ومكانتها على أبناء الأسرة الأيوبية، لأجل ذلك وقع الاختيار في هذا البحث على دراسة تبيان عظم وخطورة دورها السياسي وعلاقتها بالملوك الأيوبيين. وتتلخص مكانة ضيفة في كونها ابنة ملك وزوجة ملك وأم ملك وحفيدها ملك وأصبحت وصية عليه فملكت وحكمت حلب بوصايتها عليه، فلم تحرز أحد النساء الأيوبيات هذه الصفات الملكية.

تناول البحث سنوات حكم ضيفة خاتون لحلب كوصية على حفيدها الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد للسنوات (٦٣٤-٦٤٠هـ/١٢٣٦-١٢٤٢م)، حتى وفاتها في حلب، ولأن البحث يعنى برصد علاقاتها بالملوك الأيوبيين، فقد قسم إلى عدة محاور أساسية، رصدت علاقاتها مع أفرع الاسرة الايوبية: البيت الصلاحي وهم أولاد عمها وأهل زوجها الملك الظاهر، وملوك البيت العادلي وهم أخوة ضيفة وباقي الملوك الأيوبيين من ملوك بيت شيركوه وهم أولاد عم والدها وكانوا حكام حمص منذ عهد صلاح الدين، وحكام حماه من نسل الملك المظفر تقي الدين عمر من خلال الصعوبات والتحديات التي واجهتها ضيفة وحددت بموجبها علاقتها بأولئك الملوك.

عندما توفي صلاح الدين عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م كان قد رتب منح أولاده وأخيه العادل وبعض ابناء الاسرة الايوبية إقطاعات، تاركا لقب السلطنة لابنه الأفضل، إلا أن تطورات الأوضاع السياسية أدت في النهاية إلى استئثار الملك العادل بممتلكات أبناء أخيه باستثناء حلب التي بقيت بأيدي الملك الظاهر بن صلاح الدين. واللافت ان حلب بدورها قد حكمت ليس من قبل احد ابناء الملك العادل وإنما أسند الحكم فيها الى ابنته الملكة ضيفة زوجة الملك الظاهر بعد وفاة زوجها عام ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م وابنها الملك العزيز عام ٦٣٤ هـ /١٢٣٦ م كوصية على حفيدها لمدة ستة سنوات قبيل وفاتها ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢ م . وكان لهذه الملكة دور بارز في فض النزاع داخل البيت الأيوبي ولها حنكة سياسية في مواجهة المؤامرات الداخلية والخارجية.

وأخيراً تم الاعتماد على العديد من المصادر الأساسية وأهمها زبدة الحلب في تاريخ حلب لمؤرخ حلب أبن العديم (ت٦٦٠هـ/١٢٦١م) وكتاب شفاء القلوب في مناقب أيوب للحنبلي (ت ٨٧٦ هـ/ ١٤٧١ م) وغيرها من المصادر إضافة لبعض المراجع والبحوث الحديثة التي تناولت دراسة حياة ضيفة خاتون.

البحث

أولا: ضيفة زوجة الملك الظاهر بن صلاح الدين

كان الملك العادل قد أصبح سيداً للبيت الأيوبي، وعهد إلى أبنائه الثلاثة الملك الكامل والملك المعظم والملك الأشرف بحكم أبرز ولايات الدولة الأيوبية، إلا أن وفاته في عام ٦١٥ هـ/ ١٢١٨ م فسحت المجال لصراع داخلي جديد كان هذه المرة بين الاخوة. ثم توفي الملك المعظم عام ٦٢٢ هـ/ ١٢٢٥ م ، فخلفه ابنه الملك الناصر داؤود الذي حل محله في الصراع مع عمه. ولم يكن لضيفة دور في هذه المرحلة، إلا أنها دخلت في دائرة الصراع السياسي في عام ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م بعد وفاة ابنها الملك العزيز و رفض الملك الكامل توليها الحكم وصية على حفيدها الملك الناصر يوسف عام ٦٣٤ هـ/١٢٣٦م ،وكان عمرها آنذاك ثلاث وخمسون سنة. ولفهم ذلك الصراع لابد من إعطاء نبذة مختصرة عن دورها قبل توليها الوصاية لتبيان سياستها لاحقاً تجاه الملوك وما واجهته من مشاكل وصعوبات (للمزيد عن ولادة ضيفة خاتون وحياتها قبل زواجها ينظر: الذهبي ،١٩٩٣، ٩٣ ؛ الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٣٢٨ ، ابن الوردي ،١٩٩٦، ٢/ ١٦٨ ؛ ابن فضل الله العمري ،١٤٢٣ هـ ، ٢٧/ ٣٢٢ ؛ سبط ابن العجمي،١٤١٧هـ ، (328 /1

ولدت ضيفة خاتون بحلب في عام ٥٨١هـ/١١٨٥م عندما كان والدها ملكاً لحلب في عهد أخيه صلاح الدين الأيوبي. ثم انتقلت مع أسرتها الى مصر عندما تولى والدها حكمها في عهد أخيه. ومكثت شطرا طويلا من حياتها فيها لاسيما بعد سيطرة الملك العادل على مصر، اثر وفاة حاكمها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين في عام ٥٩٥هـ/١١٩٨م. وقد وعت وهي في مقتبل حياتها تعقيدات العلاقة بين والدها والملوك الأيوبيين وصراعاتهم بعضهم ببعض لاسيما أنها بقيت بدون زواج حتى أصبح عمرها ثمان وعشرون عاماً، وهذا سن متقدم مقارنة بسن زيجات باقي الأيوبيات، ولعل كان تأخرها في الزواج أن والدها كان يرغب في تزويجها من ابن أخيه الملك الظاهر أرمل ابنته غازية، فكان يرفض من يتقدم إليها من الملوك وما ان تقدم إليه الملك الظاهر حتى وافق عليه وتم الزواج بينهما في ١٥- محرم- ٦٠٩ هـ/ ١٢١٢ م (للمزيد عن تفاصيل زواج الملك الظاهر بضيفة خاتون ينظر : ابن العديم ،1968، -163 /3 ١٦٤؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ،٣/ ٢١٢-٢١٣ و٢١٤- ٢١٥ و٣١٣ ؛ الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٣٢٧ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧ ،١/ ٢٩٣ و٢٩٥؛ أبو الفداء ، د.ت ، ٣/ ١١٤ و ١٧١ ؛ الغساني ،١٩٧٥ ، ١/ ٣٥٤ ؛ الذهبي ،١٩٩٣، ١٣/ ٢٥ و ٤٣/ ٣٨ و ٤٦/ ٤٣٧ ؛ الذهبي ،١٩٨٥ ، ٢٢/ ١٢٩ و ١٣٣ ؛ ابن الوردي، ١٩٩٦ ،١٢٨ و١٢٩؛ النعيمي ،١٩٩٠ ، ١/ ٢٦٠ ؛ سبط ابن العجمي ، ١٤١٧هـ ،١/ ٣٢٧ ؛ العليمي ، ٢٠١١ ،٢/ ١٠٦؛ الدواداري ،١٩٧٢ ،٧/ ١٧٦ و

١٧٨ ؛ الغزي ،١٤١٩هـ ، ٣/ ٩٧؛العمري ، ١٩٦٦ ،٨١ ؛ ابن فضل الله العمري ،١٤٢٣هـ ،٢٧/ ٢٢٢ ؛ الزركلي ، ٢٠٠٢، ٣/ ٢١٦) على الرغم من الفارق العمري الكبير بينهما، فالملك الظاهر كان يبلغ من العمر اثنان واربعون عاماً بينما ضيفة كانت في الثامنة والعشرين من عمرها. وانتقلت من مصر لتستقر في حلب، و بزواجها السياسي هذا استقرت العلاقة سياسياً بين والدها وزوجها (للمزيد عن علاقة الملك العادل بالملك الظاهر ينظر :ابن العديم، 1968، 154 –153 /3)، ولعلها كانت مطلعة ومدركة أن سبب زواجها كان لتلطيف العلاقة بين البيت العادلي والبيت الصلاحي والمتمثل بالملك الظاهر لاسيما أن حلب وحدها هي التي كانت خارج سلطته، بعد أن استطاع الاستيلاء على أملاك أولاد أخيه (ينظر :ابن العديم ،١٩ 68، /3 164– 163). وبالمقابل وجد الملك الظاهر في هذا الزواج فرصة لتأمين نفسه ومملكته من أطماع عمه.

وقد اكتسبت ضيفة بمكانة مرموقة لدى الملك الظاهر، كما يقول ابن العديم انها قد "حظيت عنده حظوة، لم يسمع بمثلها" (ابن العديم ، ١٩ ٣،68/ ١٦٤)، وهذا يشير لمكانتها لديه إلا أن زواجهما لم يستمر إلا ثلاث سنوات وعدة أشهر(ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٣/ ٢٤١ (إذ توفى الملك الظاهر في يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الاخرة ٦١٣ هـ/١٢١٦ م بعد أن ولدت له ضيفة ولي عهدهُ العزيز محمد بعد أقل من عامين من زواجهما، إذ ولد في يوم الخميس ٥ ذي الحجة ٦١٠هـ/١٢١٣م (للمزيد عن ولادة الملك العزيز ينظر : ابن العديم،1968 ، /١٦٥3 ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٣/ ٢٢٠ ؛ الحنبلي، ١٩٧٩ ، ٣٤١ –٣٤٢ ؛ سبط ابن العجمي ، ١٤١٧هـ ، ١/ ٣٢٧– ٣٢٨ ؛ ابو الفداء ، د. ت ، ٣/ ١١٥ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧ ، ١/ ٢٩٧؛ النعيمي ، ١٩٩٠ ، ١/ ٢٥٨ –٢٥٩ ؛ ابن فضل الله العمري ؛١٤٢٣هـ ، ٢٧/ ٢٢٣ ؛ الغزي ،١٤١٩ هـ ، ٣/ ٩٧ ؛ الدواداري ، ١٩٧٢ ، ٧/ ١٧٦)، وكان عمر ضيفة آنذاك تسع وعشرون سنة وعمر الملك الظاهر ثلاثة وأربعون عاماً واحتفل والده بيوم ولادته بأن قام بتزويج أكثر من نيف وعشرين من ابناء الملوك الأيوبيين وبناتهم ممن سكنوا حلب، مما يدل على أن الملك الظاهر قد جمع تحت حكمه أفراد البيت الصلاحي ووطنهم فيها، بعد أن استولى الملك العادل على كل ممتلكات ابيهم عدا حلب وبعض المناطق الصغيرة.

ثانيا: وفاة الملك الظاهر وتولي العزيز الحكم في حلب

ولابد من الإشارة إلى أن علاقة الملك الظاهر بعمه لم تتحسن بفعل هذه المصاهرة بل أن الأمر ساء إذ أن الملك الظاهر عقد تحالفا مع كيكاوس بن كيخسرو– ملك سلاجقة الروم– الذي كان اعدى اعداء الأيوبيين، لمحاربة عمه، الا انه تعرض لمرض مفاجئ ربما نبع من خوفه من

عواقب هذه الخطوة وامكانية تخطيط العادل للسيطرة على حلب (للمزيد ينظر : ابن العديم، 1968، /3 ١٤٣٣ -١٤٧ و١٦٥ ؛ العمري ، ١٩٦٦ ، ٢٨٠ ؛عيسى،١٩٩٩، ٩٦) ، لذلك لجأ الظاهر الى التوصية بأن يخلفه في الحكم ابنه الأصغر الملك العزيز (كان الملك الظاهر قد أرسل ابن شداد سفيرا لعمه بثلاث مطالب وهي الموافقة على عقد صلح بين حلب والصليبيين وتحليف الملك العادل ليكون حفيد الملك العزيز خلفا للملك الظاهر فوافق عمه على الطلبين الا ان الطلب الثالث وهو الموافقة على زواج الملك العزيز من فاطمة خاتون ابنة ابنهُ الملك الكامل فارجعه لوالدها ، ولعله وافق لإتمام الزواج بينهما لاحقا. ينظر:ابن العديم، 1968، 165 /3و ١٦٨- ١٧٠ ؛ الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٢٥٤- ٢٥٥ ؛ الغساني ، ١٩٧٥ ، ١/ ٣٥٤ ؛ ابن خلكان،١٩٦٨ ، ٧/ ١٠٠ ؛ أبو شامة ، ١٩٩٧ ،٤٥؛ ابن شداد ، ١٩٥٣، ١/ ١/ ١٢٠ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ،٣/ ٢٣٧ و٢٤١ ؛ النعيمي ، ١٩٩٠ ، ١/ ٢٦٠) على الرغم من وجود أخ له أكبر منه بتسع سنوات- وهو الملك الصالح أحمد- لكنه أسند العرش لابن ضيفة فهي ابنة الملك العادل بينما كان الأخ الأكبر ابناً لجارية (الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٣٤٢- ٣٤٣ ؛ الذهبي ، ١٩٩٣ ، ١٤/ ٧٠٣ ؛ ابن خلكان ، ١٩٦٨ ، ٤/ ١٠ ؛ سبط ابن العجمي ، ١٤١٧هـ ، ١/ ١٠٨ ؛ دعكور ، ٢٠٠٦ ، ٢٢٧) لضمان عدم اعتداء الملك العادل أو أولاده على حلب والحيلولة دون الاستيلاء عليها باعتبار أن الملك العزيز أيضا أحد أفراد البيت العادلي فهو ابن ضيفة خاتون ابنة الملك العادل فكانت هذه الخطوة الثانية بعد زواجه من ابنة عمه التي كانت خطوة أولى للمحافظة على حلب بيده.

وبعد أن أرسل الملك الظاهر القاضي بهاء الدين بن شداد إلى الملك العادل يلتمس منه إقرار الوصية لحفيده بولاية العهد فأقر الملك العادل وابنه الملك الكامل طلب الملك الظاهر، ولم يمهل القدر الملك الظاهر ليعيش بعد ذلك، إذ توفي في 02 جمادى الآخرة ٦١٣ هـ /١٢١٦ م (ابن واصل، ١٩٥٧، ٣/ ٢٣٧) ، إذ توفى قبل أن يصل ابن شداد حلب ليبلغه بموافقة عمه الملك العادل على طلبه (للمزيد ينظر : ابن العديم،1968 ، ٣/ ١٦٩ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٣/ ٢٤١ و ٢٤٨- ٢٤٩ و ٢٥٢)

وعلى الرغم من الإجراءات التي اتخذها الملك الظاهر قبيل وفاته (للمزيد عن الاجراءات التي اتخذها الملك الظاهر من اخذ الايمان من العامة والخاصة بحلب ومن عمه الملك العادل وجعل الملك المنصور محمد بن اخوه الملك العزيز ليكون وليا للعهد من بعد ابنه حتى انه قام بتزويجه ابنته شقيقة الملك الصالح احمد لضمان ولائه للملك العزيز ينظر : ابن العديم،1968 ، 3/ ١٧٠؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٣/ ٢٣١- ٢٣٨ و ٢٤١ و٢٥٣ ؛ ابو شامة، 1997، 4 /2

/ ٢٨٧؛ الغساني،١٩٧٥ ، ١/ ٣٥٤ ؛ النعيمي ،١٩٩٠ ، ١/ ٢٦٠)، إلا أن الخلاف دبّ بين أبناء البيت الأيوبي في حلب ومن يتولى أمر حلب. وكان لأمراء الجيش الحلبي وغيرهم دوراً في هذا الخلاف، وبذلك بدأت صعوبات تواجه ضيفة خاتون وولدها الملك العزيز وأتابكه طغرل بك إذ انقسمت حلب لقسمين، القسم الأول مع رأي ملك سلاجقة الروم كيكاوس والذي أرسل تعازيه لحلب مع مخاطبته لبعض أمراء حلب يقترح فيها بأن يتولى الملك الأفضل الوصاية على ابن أخيه الصغير بقوله: بأن الملك الأفضل "أولى بتربيته وحفظ ملكه" وراسل الملك الأفضل بذلك وخرج بعسكره وتحالفا معا وانضم إليهم الملك الصالح الأرتقي- صاحب آمد- وتوجهت جيوشهم لحلب لأخذها، وانضم إليهم من حلب عدد من الأمراء المصريين ، ممن كانوا يخشون أن تمتد سيطرة الملك العادل على حلب، إلا أنه ظهر رأي آخر بقيادة القاضي بهاء الدين بن شداد، و الأتابك طغرل بك، وبعض القادة ومنهم سيف الدين بن علم الدين جندر وسيف الدين بن قلج وغيرهم، واجتمعت آرائهم على استبعاد فكرة تسليم حلب للملك الأفضل خوفاً من أن ينتهي به المطاف إلى فشله في الحفاظ عليها واستيلاء عمه الملك العادل عليها كما حدث سابقا لدمشق التي فقدها بسبب سياسته السيئة (ابن العديم،1968 ، 3/ ١٧٦- ١٧٧ و١٧٨). ودعمت ضيفة الرأي الثاني مما أسهم في رجحان كفته، واصبح الملك العزيز حاكما لحلب وعمره كان سنتان وستة أشهر وخمسة عشر يوماً، وأصبح طغرل بك الخادم أتابكاً له (ابن الأثير،1959، ٩/ ٣١٢ - ٣٥٤ ؛ ابن العديم، ١٩٦٨ ، ٣/ ١٧٠ و ١٨٥- ١٨٦ و ١٩٤ و ٢١١- ٢١٢ ؛ ابن خلكان، ١٩٦٨ ، ٧/ ١٠٠ ؛ ابن دقماق ، ١٩٩٩ ،٨٥- ٨٦ ؛ النعيمي ، ١٩٩٠، ١/ ٨٦ ؛ القلقشندي ، ١٩٨٥ ،٢/ ٨٣ ؛ اليونيني ، ١٩٩٢ ، ٢/ ١٣٦ .

وبدأ في هذه المرحلة دور ضيفة خاتون بالظهور سياسياً وإدارياً في حكم حلب تارة بصورة مباشرة وتارة بصورة غير معلنة، وكان بداية ذلك عندما أخفت بمساعدة طغرل بك أمر وفاة زوجها الملك الظاهر، وتم دفنه في القلعة ولم تعلن وفاته إلا بعد أن تم أخذ اليمين من الأمراء وكبار رجال حلب والحلبيين لابنها الملك العزيز طائعين أم كارهين له (ينظر: ابن العديم، 1968، 3/ ١٧٠- ١٧٢ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ،٣/ ٢٣٧- ٢٤١ و ٢٥٣ و٥/ ١١٩ ؛ أبو شامة، 1997،٢/ ٤/ ٢٨٧ ؛اليونيني ١٩٩٩٢ ، ٢/ ١٣٦ ؛ أبو الفداء ، د.ت ، ٣/ ١٥٨ ؛ الصفدي ، ٢٠٠٠، ٢٩ / ١٣٧ ؛ الغزي ، ١٤١٩ هـ ، ٣/ ٩٧ ؛ المقريزي ، ٢٠٠٦ ، ٥/ ١١ ؛ النويري ،١٤٢٣هـ ؛ النعيمي ، ١٩٩٠ ، ١/ ٣٤٠ ؛ الغساني ، ١٩٧٥، ١/ ٣٥٤ و ٣٦٣ ؛ الذهبي ، ١٩٨٥ ، ٢٣/ ٢٠٣)

أما دور ضيفة في عهد ولدها فهي من كانت تدبر أموره وشدت من عضد ولدها الذي تسلم مقاليد حكمه عند بلوغه بعد وفاة اتابكه طغرل الذي طالما عمل على تحسين علاقة حلب بالملك العادل (ت٦١٥هـ/١٢١٨م) (للمزيد عن علاقة الملك العزيز بجده ينظر : ابن العديم ، ١٩٦٨، ٣/ ١٧٩- ١٨١ و١٨٤ ؛ ابـن خلكـان ، ١٩٦٨ ، ٨/ ٥٧٤ ؛ الـذهبي ، ١٩٩٣ ، ٢١٦ ؛ النعيمي ، ١٩٩٠ ، ١/ ٢٦٠ ؛ العمري ، 1966، 81) ، وتقوت حلب في عهده وازدهرت وكان لجده الملك العادل دوراً في تثبيت حكمه لحلب إذ ثبته على حلب عندما قسم بـــــــــــــــــلاده عًلـــــــــــــــــــــــــــــــــى أولاده) للمزيد عن زوج الملك العزيز ينظر :ابن العديم،١٩٦٨، ٣ / ٢٠٦-٢٠٨ و ٢١١-٢١٢ و ٢٣٧؛ ابن خلكان،١٩٦٨، ٨/ ٥٨٠؛ الطائي، ٢٠٠٩، ٢٨). كما أنها حرصت على كسب ود أخيها الملك الكامل الحاكم القوي والذي خلف أبيه في حكم مصر عندما عقدت مصاهرة سياسية فزوجت الملك العزيز من ابنته فاطمة خاتون، والتي وصلت لحلب في رمضان ٦٢٩ هـ/١٢٣١ م) للمزيد ينظر: ابن العديم، ١٩٦٨، ٣/ ١٧١-١٧٢و ٢٠٧- ٢١١ ؛ ابن واصل،١٩٥٧، ٣/ ٢٤٨- ٢٥٠ و ٥/٣٠؛ ابن خلكان ، ١٩٦٨ ،٨/ ٥٨٠؛ عبد الرحمن،١٩٩٧، ٤٠ -٤١)

ثالثا: الملكة ضيفة والوصاية على حفيدها الملك الناصر يوسف الثاني

واستمرت أوضاع حلب مستقرة حتى وفاة الأتابك طغرل بك في ١١ محرم ٦٣١ هـ/١٢٣٣م (ابن العديم ، ١٩٦٨، ٣/ ٢١٥)، ومن بعده وفاة الملك العزيز في ربيع الأول ٦٣٤هـ/١٢٣٦م وكان عمره آنذاك أربعة وعشرون عاماً (ابن العديم ، ١٩٦٨، ٣/ ٢٠٧ - ٢١١ ؛ الـذهبي ، ١٩٩٣ ، ١٤/ ٩٢١ ؛ ابـن الـوردي ، ١٩٩٦ ، ٢/ ١٦٠ ؛ ابـن دقمـاق ، ١٩٩٩، ٨٥ ؛ ابن كثير ، ١٩٨٨ ، ١٣ / ١٧٠) ، بعد أن دام حكمه أقل من خمسة أعوام، فأصبح حكم حلب لابنه الملك الناصر يوسف الثاني ذي السبعة أعوام، فأصبحت ضيفة خاتون وصية عليه(للمزيد ينظر : ابن العديم، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٢٠- ٢٢٦ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٥/ ١١٤ - ١١٨ و ٢٥١ ؛ ابـن خلكـان ، ١٩٦٨ ، ٨/ ٧٠٣ ؛ رنسيمان ،١٩٨٠ ، ٣٦٨ ؛ ابـن فضـل الله العمـري ، ١٤٢٣هــ ، ٢٧ / ٣٠١ ؛ الغـزي ، ١٤١٩هــ ، ٣/ ٩٩) ، ومـن خلالـه حكمت حلب بصورة مباشرة لستة أعوام بمساعدة كبار رجال الدولة. وكان الملك العزيز قبل وفاته قد استدعى الملوك الأيوبيين الى حلب وحلفوا جميعاً للملك الناصر يوسف الثاني وللملكة ضيفة خاتون وصية على حفيدها ثم حلف بعدهم كبار رجال حلب وقادتها والجنود والعامة(ابن العديم ، 6819، 3/ 225 و٦٨٤- ٦٨٥ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٣/ ١١٤ ؛ الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٤٠٨ القلقشندي ، ١٩٨٥ ، ٢/ ٨٣ ؛ عباس ، ١٩٩٨، ١٨٥).

ومن هنا بدأت ضيفة خاتون حكمها لحلب بشكل معلن للمدة (٦٣٤-٦٤٠هـ/١٢٣٦-١٢٤٢م) وهو المحور الأهم لدراستنا.

واجهت ضيفة خاتون خلال فترة وصايتها مشاكل و صعوبات سياسية واقتصادية عدة منها مشاكل داخلية ومنها خارجية لاسيما فيما يتعلق بعلاقة حلب مع الإمارات الأيوبية ومع الخلافة ومع سلاجقة الروم والخوارزمية والصليبيين.

وأول تلك المشاكل تجدد الصراع بين أبناء البيت الأيوبي بعد وفاة الملك العزيز. وفحواه رفض الملك الكامل- صاحب مصر- لتولي اخته ضيفة خاتون الوصاية على حفيدها الملك الناصر وعدم اختيار أتابك من الرجال كما هو معتاد، فانقسم البيت الأيوبي بين مؤيد للملك الكامل ومؤيد لضيفة خاتون. وبدا كان الأمر سينتهي بالاحتكام للقتال. ووقف الى جانب ضيفة عدد من الملوك الأيوبيين وفي مقدمتهم أخيها الملك الأشرف- صاحب دمشق- والملك شيركوه الثاني صاحب حمص بينما ساند صاحب حماة الملك المظفر محمود خاله الملك الكامل والذي استمر بولائه له حتى وفاته.

أما عن سبب اختيار الملك الناصر يوسف لحكم حلب، فإن الملك العزيز كان له ثلاثة أولاد ولدوا له قبل زواجه من فاطمة خاتون ابنة الملك الكامل، الذي تزوجها بحلب في رمضان ٦٢٩هـ/١٢٣١ م، وكانوا قد ولدوا جميعا في عامٍ واحدٍ ٦٢٧ هـ/١٢٢٩ م وهم الملك الظاهر غازي الثاني وأمه جارية، والملك العادل الثاني وكلاهما ماتا صغيرين. أما الابن الثالث فهو الملك الناصر الثاني (ابن العديم ،1968، ٢٠٨ و ٢١١)، وأمه جارية تركية - أم ولد- (ابن العديم،1968 ، ٢١١ ؛ الذهبي ، ١٩٩٣ ، ١٤ / ٩١٦)، فهو لم يكن ابن فاطمة خاتون، أما بنات الملك العزيز فلم يرزق سوى ابنة واحدة، وهي شقيقة الملك الناصر يوسف، والتي تزوجها الملك الأمجد حسن بن الملك الناصر داؤود- صاحب الكرك- والتي أنجبت منه ولداً ذكرا (للمزيد ينظر : ابن واصل ،١٩٥٧، ٥/ ١١٨ ؛ الذهبي ، ١٩٩٣ ، ١٤/ ٧٠٣ ؛ القلقشندي ، ١٩٨٥ ،٢/ ٨٣ ؛ الطائي، 2009،.(29)

كان عمر الملك الناصر الثاني عند وفاة والده الملك العزيز لا يتجاوز السابعة. لذا تولت جدته من أبيه الوصاية عليه، ولعل ضيفة تولت الوصاية لتحافظ على حلب بيدها وللحيلولة دون تحقيق أهداف أخيها الملك الكامل في ضمها له، وبوصايتها تعطي الصفة الأيوبية العادلية للملك الناصر ابن الجارية التركية بكون الوصية عليه من البيت العادلي ووالده من البيت الصلاحي، فحلب كان آخر ملجأ استقرار أفراد البيت الصلاحي و ملاذهم الآمن. ووقع على عاتق ضيفة خاتون عبء المحافظة على حلب لهم واستمرار حكمهم لها.

وتم ترتيب الشؤون الداخلية لحلب فوضعت الأمير عز الدين عمر بن محلى والأمير شمس الدين لؤلؤ الأميني والقاضي جمال الدين الأكرم ابن القفطي مساعدين لها، وكان جمال الدولة إقبال الخاتوني يحضر محلهم وينقل إليها ما اتفق رأيهم، فأما توافقهم الرأي أو ترفضهُ (ابن العديم ،1968، ٢٢٥ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٥/ ١١٤– ١١٥ و١١٩ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧ ، ١/ ٣٧٧ ؛ ابن دقماق ، ١٩٩٩ ، ٨٥– ٨٦.

رابعا: الوصاية على حلب والملك الكامل الأيوبي

بعد استقرار أمر وصاية ضيفة خاتون على حفيدها في عام ٦٣٤ هـ/١٢٣٦م (ابن العديم ،6819 ، 226 –225 /3؛ اليونيني ، ١٩٩٢، ٢، ١٣٦) ، وبدأت بإرسال الرسل لأخوتها ولباقي الملوك الأيوبيين لأخذ البيعة وتحليفهم لحفيدها، وكان أول من توجهت إليه بالخطاب أخيها الملك الكامل الرجل الأقوى، إذ أرسلت إليه قاضي حلب ابن زين الدين بن الأستاذ ومعه الأمير بدر الدين بن أبي الهيجاء و أخذا معهما كُزَاغَند الملك العزيز "وزرديته، وخوذته، ومركوبه" (ابن العديم،1968 ،225 /3) ، فحلف الملك الكامل للملك الناصر، لكنه اقترح أن يكون الملك الصالح أحمد بن الملك الظاهر– صاحب عينتاب– عم الملك الناصر وأخو الملك العزيز– أتابكا لابن أخيه وقائدا للجيش. وإن يتزوج فاطمة بنت الملك الكامل أرملة الملك العزيز، لعل الكامل زوج فاطمة لهذا السبب(ينظر : ابن العديم،19 ٦٨، ٣/ ٢٢٥– ٢٢٦ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧ ، ١/ ٣٧٧) ، وتوضح الرواية التي قدمها ابن العديم بصورة دقيقة موقف الملك الكامل الذي لم يستقبل رسل حلب بما يليق " وقصر في إكرامهما وعطائهما ، وحلف للملك الناصر، على الوجه الذي اقترح عليه، وخاطب الرسولين بما يشيران به ،عنه، من تقدمة الملك الصالح بن الملك الظاهر على العسكر وان تكون تربية الملك الناصر إليه، فلم ير الجماعة ذلك" (ابن العديم ، 6819 ، .(226 /3)

ولم يكتف الملك الكامل بذلك فقد أرسل الخلع للملك الناصر ينقصها مركوب بينما ارسل خلعة خاصة مع رسوله للملك الصالح بن الظاهر، وهو الشخص الذي كان قد اقترحه للوصاية على الناصر يوسف، وأمر رسوله بالذهاب الى عينتاب مركز حكمه، فأثار ذلك خوف ضيفة خاتون وكبار رجال حلب، لأنهم شعروا بنوايا الملك الكامل في التدخل بشؤون حلب وفرض الملك الصالح وصيا دون ضيفة خاتون، لذا رفضوا استلام الخلع الكمالية عدا خلعة الملك الناصر فلبسها ومنع الآخرين من لبس خلعهم، ووصف ابن العديم حال ضيفة خاتون بأنه قد حصل لها "وحشة" من فعل أخيها، كما منعوا الرسول من التوجه إلى الملك الصالح وأرجعوا إليه الخلع، وعدت ضيفة ذلك تدخلا في شؤون السياسة الداخلية لحلب.(ابن العديم ،١٩٦٨ ،

٢٢٥- ٢٢٦ ؛ ابـــن واصـــل ، ١٩٥٧ ،٤/ ٢٨٣ و ٥/ ١٢٠-١٢١ و ١٢٣ ؛ المقريـــزي ، ١٩٩٧، ١/ ٣٧٧) وقد جاء ذلك الموقف بداية للخلاف بين ضيفة خاتون وأخيها الملك الكامل، الذي كان آنذاك أقوى شخصيات البيت الأيوبي لاسيما بعد انتزاعه دمشق من الملك الناصر داود بن الملك المعظم ثم تسليمها للملك الاشرف مقابل تنازله عن أملاكه للملك الكامل في إقليم الجزيرة. فأصبح بذلك اقوى ملوك الأيوبيين.

يتبين من خلال ما سبق عدم رضى الملك الكامل على أن يكون لضيفة خاتون أي دور في حكم حلب، فلم يسبق أحد من النساء الأيوبيات المشاركة في الحكم الذي كان مقتصراً على الملوك الأيوبيين فقط.

نتيجة لموقف الملك الكامل من اخته ظهر العداء بينهما وانقسم البيت الأيوبي بين مؤيد له ومؤيد لاخته. وهنا تظهر شخصية الملك الأشرف أخو للملك الكامل وضيفة خاتون- صاحب دمشق- في الصراع ، فهو كان على الضد من الملك الكامل منذ أن استولى الأخير على أملاكه وأخذ منه الكثير من المناطق التابعة لدمشق، فضلا عن ممتلكاته في البلاد الشرقية مقابل إعطاء دمشق(للمزيد ينظر : ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٢٦- ٢٢٧ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧ ، ١/ ٣٧٧)، لذا عندما حصلت الوحشة بين ضيفة والملك الكامل ساند اخته ضيفة خاتون وانضم إليها فلم يرضى على ما فعله أخوهما(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٢٦)، وقام الملك الأشرف بعقد تحالف ضد الملك الكامل بينه وبين الملوك الأيوبيين فانضم إليه الملك المجاهد شيركوه الثاني- صاحب حمص- والملك المظفر- صاحب حماه- وراسل الملك الأشرف اخته ضيفة خاتون وكبار رجال حلب وامرائها وخوفهم من تقدم الملك الكامل لحلب وضمها إليه (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٢٧؛ ابو الفداء ، د.ت ، ٣/ ١٥٨- ١٥٩ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧ ، ١/ ٢٥٤ و٢٥٦ ؛ ابن فضل الله العمري ، ١٤٢٣ هـ ، ٢٧/ ٣٠١)، فخافت ضيفة ومع معها من الأيوبيين من أطماع الملك الكامل(رنسيمان ، 1980، (368، وراسلت خصوم الملك الكامل وقامت بتحليفهم على عدم معاداتهم لحفيدها الملك الناصر وأن يقروا بوصايتها عليه في حكم حلب(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٢٦- ٢٢٧ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٥/ ١٢٣). فانضم إليهم الملك شيركوه الثاني- صاحب حمص- الذي كان لا يود الملك الكامل لذا كان أكثر المتحمسين لذلك الحلف(ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٤/ ٢٥٧ و٥/ ١٢١- ١٢٤؛ الصائغ، ١٩٨٨، ٤١- ٤٧). كما اقترح الملك الأشرف على ضيفة خاتون مراسلة علاء الدين كيقباذ بن غياث الدين كيخسرو- سلطان سلاجقة الروم- لينضم إليهم ضد الملك الكامل، فوافقت ضيفة خاتون وأرسلت هي والملوك المتحالفين رسلهم إلى ملك سلاجقة

الروم لغرض الاتفاق على محاربة الكامل، إلا كيقباذ توفى قبل ان تصله رسل حلب، لذا انتقل الوفد الحلبي إلى ابنه كيخسرو الثاني الذي تولى الحكم بعد والده، فقدموا له التعزية وطلبوا منه التحالف معهم فوافق وانضم لحلفهم في ذي القعدة سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٢٧- ٢٢٨ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٤/ ٢٥٧ و ٥/ ١٢١- ١٢٤ ؛المقريزي ، ١٩٩٧، ١/ ٣٧٧.

أما ملك حماه الملك المظفر محمود فقد كان مواليا للملك الكامل، فهو ابن أخته وصهره وهو من ساعده على تولي حماه بعد انتزاعها من أخيه الملك الناصر قليج، وحاولت ضيفة والأشرف استمالته إليهم إلا أنه رفض، وقام الملك المجاهد شيركوه الثاني- صاحب حمص- بالوساطة بينه وبينهم، وهددوه بأنهم سيحاربوه فخاف على بلاده منهم واجبر الإنضمام إليهم، مع ميله لخاله، وتوجه لدمشق وحلف للملك الأشرف ثم عاد على حماه، وبذلك تحالف الملوك الأيوبيين مع ضيفة والأشرف ضد الملك الكامل(ابن العديم ،١٩٦٨ ، ٣/ ٢٢٧ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٥/ ١٢٣- ١٢٤ ؛ ابن فضل الله العمري ، ١٤٢٣ هـ ، .(301 / 27

وبعد إتمام التحالف ضد الملك الكامل أرسل الملوك الأيوبيين رسلهم لمصر ومن بينهم رسول ضيفة خاتون، وكانت رسالتهم للملك الكامل تحمل تهديداً له إذ أبلغوه بأنهم قد تحالفوا واتفقوا ضده واجتمعت كلمتهم على منعه مع نزوله بلاد الشام وأن يقتصر حكمه على مصر، وأن يحلف على ذلك(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٢٦- ٢٢٨ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٥، ١٢١- ١٢٤ و ١٣٧ و٢٢٧ ؛ المقريزي ،١٩٩٧، ١/ ٣٧٧- ١٧٨؛ الصايغ ، ١٩٨٨ ، ٤١- ٤٧).

فما كان الملك الكامل إلا أن قابل مطالبهم بالسخرية وبارك تحالفهم واتفاقهم ضده، ثم طلب منهم أن يحلفوا هم أيضا أن لا يهاجموا أملاكه في مصر وبلاد الشام ومن ثم هو سيحلف على ما طلبوا، وأرسل ذلك الطلب مع رسوله من مصر إلى بلاد الشام، ثم كان أن أصاب الملك الأشرف آنذاك مرضاً أدى إلى وفاته في ٤ محرم ٦٣٥هـ/١٢٣٧م (ابن العديم ، ١٩٦٨ ،٣/ ٢٢٨ ؛المقريزي ،١٩٩٧، ١/ ٣٧٨ ؛ دعكور ، ٢٠٠٦، ٢٢٢).

وكان لوفاة الاشرف الأثر البالغ في إعاقة ذلك التحالف (للمزيد عن الملك الأشرف ينظر : ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣، ٢٣٣ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧، ٥/ ١٥٢ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧ ، ١/ ٣٧٩؛ الذهبي ، ١٩٩٣ ، ٢٦٨- ٢٧٣ ؛ دعكور ، ٢٠٠٦، ٢٢٢)، وخسرت ضيفة بوفاته حليفها القوي الذي كانت له مواقفه السابقة في حماية حلب من الأخطار التي واجهتها فالى جانب منعه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق من التوجه لحلب والاستيلاء عليها عند وفاة

الملك الظاهر (للمزيد عن الملك المعظم عيسى ينظر : السليفاني ، ٢٠٠٣)، كان له دوراً في التصدي للمؤامرات الداخلية التي تُحاك ضد الملك الناصر وضيفة خاتون عن حكم حلب (ابن العديم،١٩٦٨، ٣/ ٢٢٩)، فقد كان بعض الأمراء الحلبيين غير راضين ومعارضين لتوليهم حلب إذ قام كمال الدين عمر بن العجمي وصاحب شيراز شهاب الدين يوسف بإرسال رجل اسمه العز ابن الأطفاني إلى الملك الأشرف الذي كان بدمشق وحمله رسالة مفادها أن رجال حلب ومعظم أمرائها معه تريد أن تسلمه حكم حلب بدلا من ضيفة وحفيدها، وعرض عليه الأموال ليجهز حملة يهاجم بها أخته ويستولي على حلب شرط أن يولي ابن العجمي قضاء حلب، إلا أن الملك الأشرف رفض ذلك، بل أنه رفض استقبال رسولهما. وقام خواص الملك الأشرف باستقباله وكان فلك الدين ابن المسيري –وزير الملك العادل سابقا – المتكلم بين الطرفين، فما كان رد الملك الأشرف إلا الرفض إذ قال: "لا تتصوّر أن يبدر مني غدر ولا قبيحٌ في حقّ أحد من ذريّة الملك الظاهر"، فلما وصل خبر المؤامرة إلى ضيفة خاتون تصرفت بحزم فما أن عاد الرسول لحلب حتى ألقي القبض عليه وسجن كما ألقي القبض على ابن العجمي وصاحب شيراز وتم مصادرة أموال صاحب شيراز ولكن لم تصادر أموال ابن العجمي وكان ذلك في سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٦م (ابن العديم، 1968، /3 ٢٢٨– ٢٢٩ ؛ المقريزي ، ٢٠٠٦، ٤/ ٥٨– ٥٩) .

ولما توفى الملك الأشرف ولم يكن له ابن يورثه، فاستغل الملك الكامل ذلك وزحف بجيشه إلى بلاد الشام فتوجه لدمشق وكان معه الملك الناصر داؤود– صاحب الكرك– وحاصرها وكان يحكمها الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل، فطلب النجدة من حلب وحمص، فأرسل الملك المجاهد شيركوه ابنه على رأس قوات حمص، إلا أنها وصلت متأخرة، إذ أن الملك الكامل كان قد تمكن من دخول دمشق وعزل الملك الصالح إسماعيل (للمزيد ينظر : ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٣٣ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٥/ ١٥٠ و ١٣٧– ١٥٣)، وعرض على صهره وابن اخته الملك المظفر– صاحب حماه– دمشق مقابل الانضمام إليه في حملة سيزحف بموجبها الى حلب ليستولي عليها فوافق واستلمها.

وعندما وصلت هذه الأخبار ضيفة خاتون استعدت لصد أخيها الملك الكامل إذ ما توجه إليها، واتخذت التدابير وتجهزت بالذخائر والأسلحة لمواجهة الحصار إذ ما تعرضت إليه حلب وقامت بتحليف الأمراء وأبناء الأسرة الايوبية الموجودين بحلب والعسكر وكبار حلب والعامة، كما طلبت النجدة من قوة جديدة ظهرت في المنطقة هي قوة الخوارزمية(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٣٥ –٢٣٦؛ أبو الفداء ، د.ت ، ٣/ ١٦٢)، وطلبت النجدة من حليفها الملك غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباذ– ملك سلاجقة الروم– فأرسل إليها النجدة وأرسل رسالة تهديد

للملك الكامل يحذر من السير لحلب (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٣٥- ٢٣٦ ؛ابن واصل ، ١٩٥٧، ٥/ ٢٩- ٣٠؛ أبو الفداء ، د.ت ، ٣/ ١٦٢).

واثار اعلان الملك المظفر محمود – صاحب حماه– انضمامه للملك الكامل غضب الملك المجاهد شيركوه الثاني وشب خلاف بينهما(للمزيد ينظر : ابن العديم ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٣٣- ٢٣٥). وحاولت ضيفة خاتون التدخل، إذ ارسلت رسلها للإصلاح بينهم وكان سفيرها المؤرخ كمال الدين بن العديم قد أخفق بسفارته. وكانت النتيجة أن قام الملك المظفر بالتهديد بمساعدة خاله الملك الكامل في الهجوم على حمص، لكنه طمأن ضيفة أنه لن يتعرض لحلب وقال لابن العديم: "ولكن حلب، أبذل نفسي ومالي دون الوصول إلى قرية منها، ولا أرجع عن اليمين التي حلفت بها للستر العالي والملك الناصر"(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٣٤(236 –، لكن هذا الرد لم يقنع الملكة ضيفة، التي طلبت من سفيرها العودة الى حلب، فخرج من حماه غاضبا ولم ينتظر لاستلام الخلع، فلحق به رسل صاحبها بالخلع وغيرها من الهدايا لكنه رفض استلامها، وعاد ابن العديم لحلب وكان ذلك في مستهل جمادى الأولى ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨(ابن العديم ،١٩٦٨ ، ٣/ ٢٣٤- ٢٣٦ ؛المقريزي ، ١٩٩٧ ،١/ ٢٥٧- ٢٥٨و ٢٦٨- ٢٦٩ ؛ عباس ، 1998، . (185

وبدا أن الملك الكامل سيزحف الى الشمال وينتزع حلب من ضيفة وحفيدها، والتي لم تكن قادرة على التصدي له، الا ان ارادة الله شاءت أن تتخلص حلب من خطره والى الابد عندما داهمه الموت في ٢١ رجب ٦٣٥ هـ/آذار ١٢٣٨ م أي بعد خمسة أشهر من وفاة أخيه الأشرف(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٣٦- ٢٣٨ ؛ سبط ابن الجوزي ،١٤١٧هـ ، ٨/ ٧٠٦- ٧٠٧).

ولما بلغ ضيفة خبر وفاته كان ذلك بمثابة إنقاذ غير منتظر لها، لكنها تحاملت على نفسها فأقامت له مجلس عزاء ليومين. ثم بدأت بعدها بإجراءات ضد من ساند أخاها ضدها ومنهم الملك المظفر تقي الدين محمود الثاني بن الملك المنصور محمد – صاحب حماه – إذ أرسلت جيش حلب لحصار حماه واستولى على عدة مناطق تابعة لها وضمّها لحلب إلا ضيفة خاتون لم تكن ترغب في الاستيلاء على حماه ورفضت محاولات الصلح بينهما واستمر حصارها لحماه حتى عام ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩ م (ينظر :ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٣٨ ؛الحنبلي ،١٩٧٩ ، ٣٩٧-٤٠٦ ؛ أبو الفداء ،د.ت ، ٣/ ١٦٣ ؛ ابن الوردي ، ١٩٩٦، ٢/ ١٦٣ ؛ الغزي ، ١٤١٩هـ ، ٣/ ١٠٠ ؛الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٣١٩ ؛ ابن فضل الله العمري ، ١٤٢٣هـ ، ٢٧/ ٣٠٩) وذلك لأن الملك المظفر كان ابن اختها ملكة خاتون–توفيت عام ٦١٦هـ / ١٢١٩ م–

بنت الملك الكامل(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤٤ ؛ اليونيني ، ١٩٩٢ ، ٢/ ١٣٥؛ الطائي ، ٢٠٠٩، ١٩- ٢٠) .

خامسا: ضيفة والأيوبيون بعد وفاة الملك الكامل

ومن هنا بدأت ضيفة خاتون مرحلة جديدة في حكمها لحلب ودخلت علاقات جديدة مع الملوك الأيوبيين إذ أصبحت هي عماد البيت العادلي والصلاحي معاً ومركز حكمها حلب التي استقرت به كملكة له، إذ كانت المرجع الرئيسي في فض الخصومات والخلافات بين أبناء البيت الأيوبي، وكانت لها سياستها الخاصة المختلفة عن سياسة من سبقها من الملوك الأيوبيين، إذ كانت حيادية بهدف الحفاظ على حكم حلب بيدها وبيد ورثة الملك الظاهر وورثة البيت الصلاحي فلم يعد لهم مكان سوى حلب اجتمعوا وتجمعوا فيه، فكانت بمثابة الوصية عليهم جميعاً.

وكانت حلب لها مكانتها السياسية والعسكرية فحافظت ضيفة على مكانة حلب وما كان لها من دور فعال ومركزي في مصر وبلاد الشام لاسيما أن معظم الملوك فيها، لذا كان يقصدها الرسل والوفود لطلب رضاها لا سيما بعد أن بدأت الخلافات تظهر بشكل واضح بين أولاد الملك الكامل واخوته، وحاول الجميع كسب تأييد حلب لهم المتمثل بضيفة وذلك "لمكانتها بين أبناء الأسرة الأيوبية" على حد وصف ابن العديم لمكانتها آنذاك(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٢٥). ومثال ذلك أظهر الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل الولاء لأخته ضيفة خاتون واعلن الخطبة للملك الناصر الثاني – صاحب حلب – ولهذا اقطع الأخير له حران (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤١).

كما أن ابن أخيها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل (للمزيد ينظر : فلح ، 2013،(33-5 تبنى سياسة مناقضة لسياسة والده تجاه عمته ضيفة حيث أذ أرسل إليها يقول ان "البلاد كلها بحكمكِ وإن شئتِ إرسال نائب يتسلم هذه البلاد وغيرها فأرسله لأسلم إليه ما تأمريني بتسليمه ،.فشكرته وطيبت قلبه."(ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤١- ٢٤٢ ؛ أبو الفداء ،د.ت ، ٣/ ١٧٠ ؛ الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٣٦٧ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧ ، ١/ ٢٧١ ؛ النويري ، 1423هـ ، ٢٩ / ١٥٢) ولعله قام بمراسلتها بعد أن قامت بتوزيع اراضيه التابعة له على الملوك المؤيدين لها(ينظر : ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤١- ٢٤٢). كما استجار ابنه الملك المغيث فتح الله بن الملك الصالح أيوب بعمة أبيه ضيفة خاتون من الخوارزمية في عام ٦٣٥ هـ/ ١٢٣٨ م إلا أنها رفضت طلبه وقالت له : "نخاف أن يطلبك منا سلطان الروم ، ولا يمكننا

منعك منه " (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤٢ ؛ أبو الفداء ، د.ت ، ٣/ ١٧٠ ؛ المقريزي ، ١٩٩٧، ١/ ٢٨٥).

كما كان الملوك الايوبيين يطلبون مساعدتها ضد اعدائهم فقد أرسل الملك الجواد يونس بن ممدود – صاحب دمشق– في عام ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨ م بعد أخذه لدمشق واستيلائه على خزائن عمه الملك الكامل بعد وفاته رسالة لعمته ضيفة خاتون يطلب منها مساندته ومعاضدته ضد أخيه الملك العادل – صاحب مصر– إلا أنها رفضت طلبه ومساعدته (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤٢ و ٢٤٤ ؛ ابن شداد ، ١٩٥٣ ، ١/ ١/ ٢٠١ ؛ عيسى ،١٩٩٩ ، ٣٨– ٣٩.

لذا وبعد أن رفضت ضيفة مساعدة ابن أخيها الملك الجواد قام بمراسلة عمه الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل وسلمه دمشق فدخلها في جمادى الآخرى ٦٣٦ هـ / ١٢٣٩م والذي أسرع لمراسلة عمته وابلاغها بآخر مستجدات الأحداث وانه يمتثل لأوامرها وطلب مساعدتها له ضد أخيه الملك العادل –صاحب مصر – إلا أنها رفضت طلبه وأجابته بأنها " لا تدخل بينه وبين أخيه وانكما ولد أخي ولم تجبه إلى ما اقترح " (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤٥ ؛المقريزي ، ١٩٩٧، ١/ ٢٧٩ ؛ ابو الفداء ،د.ت ؛ ٣/ ١٧٠) . بعد ذلك توجه الملك الصالح أيوب لمصر وتمكن من أخذها من أخيه الملك العادل بن الملك الكامل في ٢٤ ذي القعدة ٦٣٧ هـ / ١٢٤٠ م ، وكان آنذاك كمال الدين بن العديم سفير حلب بمصر والذي كان قد أرسل للملك العادل لتهنئته لانتصار على الصليبيين من جهة و جلب الخاتونات بنات الملك العادل من مصر لاختهم ضيفة التي استدعتهم إليها من جهة أخرى. وبعد تطور الأحداث تحولت تلك السفارة لعدة سفارات إذ استدعاه الملك الصالح وحمله رسالة لعمته قال لها بأنه تحت امرتها وأظهر استعداده للامتثال لتوجيهاتها السياسية وولائه لها . بعد خروجه من مصر مر بدمشق في محرم ٦٣٨ هـ / ١٢٤١م بطريقه لحلب فحمله صاحبها الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل– الذي استولى على دمشق بعد خروج الملك الصالح أيوب منها متجها لمصر–رسالة طلب منها مساعدتها ومساندتها ضد الملك الصالح أيوب إذ ما توجه اليه الا انها لم توافق على طلبه (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤٧ –٢٤٨؛ الحنبلي ،١٩٧٩ ، ٣٣٢– ٣٣٣ ؛ عيسى ، ١٩٩٩ ، ٣٨– ٣٩) وهذا يشير الى مكانتها وسيطرتها سياسيا على الملوك الأيوبيين لذا كانت اغلب محاولاتهم لكسب رضاها .

ولابد من الإشارة الى علاقتها الملك الحافظ أرسلان شاه بن الملك العادل صاحب قلعة جعبر فبعد أن أصابه مرض الشلل واشتدت معارك الخوارزمية حول بلاده ولخوفه من تسليم أولاده لقلعة جعبر لهم قام في عام ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م بمراسلة اخته وتسليمها جعبر واستبدالها

بما يتناسب واهميتها فوافقت ضيفة على طلبه وارسلت اليه من تسلمها منه وتوجه هو لحلب حيث احسن استقباله عند وصوله اليها (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤٨- ٢٤٩ و٢٦٣ ؛ابن شداد ، ١٩٥٣ ، ١/ ١/ ١١٩ ؛ أبو الفداء ، د.ت ، ٣/ ١٦٧ ؛ابن الوردي ، ١٩٩٦، ٢/ ١٦٥ ؛ ابن فضل الله العمري ، ١٤٢٣ هـ ، ٢٧ / ٣١٧ ؛ الغزي ، ١٤١٩ هـ ، ٣/ ١٠٠؛ الذهبي ، ١٩٨٥ ، ٢٢/ ١٣٢- ١٣٣ ؛ الحنبلي ، ١٩٧٩ ،٣٢١- ٣٢٢) .

ضيفة خاتون وخطر الخوارزمية

ادى توسع الحكم الايوبي الى اقصى بلاد الجزيرة الى الاحتكاك مع الدولة الخوارزمية في عهد السلطان جلال الدين منكبرتي، الذي توسع نفوذه في بلاد ايران وبلاد الكرج وارمينيا، فوجده الايوبيون عنصرا جديدا يمكن ان يدخل طرفا في الصراعات السياسية الدائرة بينهم وهكذا مد له الملك المعظم –صاحب دمشق– يد التحالف في مواجهة اخيه الملك الكامل– صاحب مصر–، الا ان وفاة المعظم والضغط المغولي الكبير على منكبرتي صرفه عن الساحة الشامية حتى وفاته عام ٦٢٨هـ/١٢٣١م ولم يؤدي انهيار الدولة الخوارزمية التي زوال هذه القوة وانما حول فلولها الى مقاتلين مرتزقة مثلوا خطرا كبيرا على الاوضاع السياسية ،وكانت حلب في مقدمة الكيانات السياسية الشامية التي اكتوت بنار الخطر الخوارزمية. (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٤٨ – ٢٦٥ ؛الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٢٦٩ ؛ أبن الفداء ، د.ت ، ٣/ ١٧٠- ١٧١ ؛ المقريزي ، 1997، (1/ 302- 303).

واجهت الملكة ضيفة هذا الخطر بكل حزم. وكان ذلك ميدانا جديدا عكست فيها حنكتها السياسي وتولى قيادة هذا الجيش الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين . وعقدت ضيفة تحالفاً مع سلاجقة الروم والملوك الأيوبيون وطلبت نجدتهم ضد الخوارزمية فوصل إليها الملك الصالح بن الملك المجاهد – صاحب حمص – والملك الجواد بن مودود بن الملك لحافظ (ابن العديم ، ١٩٦٨ ،٣/ ٢٤٩- ٢٥٠) الا ان ابن العديم يشير إلى قلة عدد القوات التي خرجت من حلب وبأنها لا تزيد عن ١٥٠٠ مقاتل لاسيما وان بعض قوات حلب قد انضمت الى سلطان سلاجقة الروم في التصدي للمغول والبعض الاخر قد ذهب إلى جعبر ليتسلمها بعد ان تنازل عنها الملك الحافظ لأخته –كما اشرنا سابقا–(ابن العديم،١٩٦٨، ٣/ ٢٤٨- ٢٤٩؛ ابن شداد، ١٩٥٣، ١/١/ ١١٩) وبالمقابل فإن الخوارزمية قد تحالفوا مع بعض القوى الايوبية مثل الملك الجواد يونس بن ممدود بن العادل صاحب عانة والملك الصالح –أخو الملك المنصور صاحب حمص–وانضم إليهم الأمير علي بن حديثة وبلغ عدد قواتهم نحو ١٢ ألف مقاتل (ابن العديم،١٩٦٨ ،٣/ ٢٥٠) وعلى الرغم من هذا التفاوت الكبير في الأعداد إلا أن جيش حلب لم

يتخلى عن المواجهة وحقق في البدء نصرا أوليا بفضل شجاعة تورانشاه، إلا أن المعركة شهدت انعطافا بفعل مباغتة قوات علي بن حديثة لجيش حلب من البساتين. وكانت النتيجة أن تعرض جيش حلب لهزيمة كبيرة ووقع تورانشاه أسيرا بأيدي الخوارزمية (ابن العديم، ١٩٦٨، ٣/ ٢٥١؛ أبو الفداء، د.ت، ٣/ ١٦٧) وقد مارس هؤلاء اقسى درجات التنكيل والقتل والتخريب والنهب فكانت تلك هزة كبيرة تعرضت لها ضيفة وأصبح امن حلب على المحك. لا سيما بعد أن فقدت القسم الأكبر من قدراتها القتالية، فما كان منها الا ان اتخذت اجراءات عاجلة من قبل مناشدة القوى الاخرى مثل أخيها الملك الصالح في دمشق وسلاجقة الروم واستمالة علي بن حديثة وحثه على نبذ تحالفه مع الخوارزمية لاسيما بعد أن رأى الوحشية التي اظهروها في التعامل مع القرى والبلدات الإسلامية، وبالفعل نجحت في تحييد القبائل العربية في هذا الصراع وعلى اثر ذلك زوجت الزعيم العربي بعض جواريها واقطعته اقطاعا كبيرا (ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٥٤– ٢٥٥)وعادت مرة اخرى لتحشيد قواتها من جديد بعد ان نجحت بتحييد القبائل العربية وسلب الخوارزمية أحد حلفائهم.

اما الاجراء الثالث الذي اتخذته ضيفة فهو اطلاق سراح الاسرى الصليبيين من الفرقة الداوية وذلك لكي تؤمن خطر ان يهاجموا حلب اثناء انشغالها بالتصدي للخوارزمية.

ووقعت المواجهة الجديدة في اقليم الجزيرة بعد انسحاب الخوارزمية الى جهة حران ثم الى الرها، فكان الملك المنصور على قيادة جيش حلب وحلفائها، واوقع بالخوارزمية هزيمة فادحة وتمزقت قواتهم وهربوا من المنطقة بمجملها، واستولى الجيش الحلبي على حران وسروج والرها وراس عين وجملين والموزر والرقة، بينما استولى الملك المنصور على بلد الخابور وقرقسيا(ابن العديم ،١٩٦٨ ، ٣/ ٢٥٩ – ٢٦٠).

وعندما وصلت الاخبار حلب زينت المدينة ايانا وضربت البشائر ووصلت اعلامهم الى حلب وبذلك زال هذا الخطر وأمنت حلب وبقية بلاد الشام منه. وأطلق سراح الملك المعظم تورانشاه إذ كان مسجونا بمدينة دارا، فاستولى عليها بدر الدين لؤلؤ وأطلق سراحه واستصحبه إلى الموصل واكرمه وعاد الى حلب معززا في موكب وبصحبته الهدايا والتشريفات.(ابن العديم، ١٩٦٨، ٣/ ٢٥٩)

وبذلك أمنت ضيفة حلب ومملكتها من هذا الخطر الداهم وضمنت لحفيدها الناصر يوسف الثاني حكما مستقرا ثم لتغادر الحياة بعد ذلك وقد ادت رسالتها كاملة.

وفاة ضيفة خاتون:

توفيت ضيفة بقرحة المعدة ولمضاعفات أصابتها، في ليلة الجمعة ١١ جمادى الأولى ٦٤٠هـ/١٢٤٢م في حلب(للمزيد ينظر : ابن العديم ، ١٩٦٨ ، ٣/ ٢٦٥ / ٢٦٦ ؛ ابن واصل ، ١٩٥٧، ٥/ ٣١٢– ٣١٣ و ٤٣٧ ؛ ابن الوردي ، ١٩٩٦ ، ٢/ ١٦٨ ؛ سبط ابن العجمي ، ١٤١٧هـ ، ١/ ٣٢٧ ؛ الـــذهبي ، ١٩٨٥ ، ١٤/ ٣١٩ ؛ اليـــونيني ، ١٩٩٢ ، ٢/ ١٣٧ ؛ الـدواداري ، ١٩٧٢ ، ٧/ ٣٥١ ؛ ابـن دقمـاق ، ١٩٩٩ ، ١٤٨ ؛الصـفدي ، ٢٠٠٠ ، ١٦ / ١٩٠ ؛ الغزي ، ١٤١٩هـ ، ٣/ ١٢٩ ؛ ابن فضل الله العمري ، ١٤٢٣هـ ، ٢٧/ ٣٢٢ ؛النويري ، ١٤٢٣هـ ، ٢٨ / ٣٠١ ؛ العليمي ، ٢٠١١ ، ٢/ ١١٥)، عن عمر ناهز التسعة وخمسون عاماً (الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٣٢٩ ؛ ابو الفداء ، د. ت ، ٣/ ١٧١) ، ودفنت في الحجرة بقلعة حلب مع ولدها الملك العزيز (ابن العديم، 1968، 266 /3)، بعد أن حكمت حلب لستة سنوات كوصية للملك الناصر الذي كان عمره عند وفاتها ثلاثة عشر سنة فلم يبلغ سن الرشد آنذاك، وانتهت حياتها التي مرت بأربعة مراحل: مع والدها الملك العادل بمصر لمدة ثمانية وعشرين سنة، ثم بقيت مع زوجها الملك الظاهر ثلاثة سنوات وعدة أشهر(ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٥/ ٣١٢ ؛ الحنبلي ، ١٩٧٩ ، ٣٢٨– ٣٢٩) ليتولى بعده ابنها الملك العزيز حكم حلب لمدة ٢١ سنة ثم لتصبح الوصية على حفيدها لمدة ستة سنوات. وقد اقتصر البحث على السنوات الست الاخيرة من حياتها، وعلى جانب واحد منها ألا وهو علاقاتها بأبناء البيت الأيوبي في السلم والحرب. وبذلك عاشت حياة حافلة بالأحداث وماتت ملكة بدأتها طفلة صغيرة بحلب وتوفيت ودفنت فيها أيضا.

ووصف حكمها لحلب بأنها كانت "ملكة جليلة عاقلة "(الصفدي ، ٢٠٠٠، ١٦/ ١٩٠ ؛ الذهبي، 1993، (437 /46، وأنها "تصرفت الملكة ضيفة تصرف السلاطين، ونهضت بالملك أتم نهوض بعدل، وشفقة، وبذل وصدقة، وعقلٍ و حذلقة"، وحسن تدبير لسياسة وإدارة حلب (ابن واصل ، ١٩٥٧ ، ٥/ ٣١٣ و ٤٣٧ ؛ الذهبي ، ١٩٩٣ ، ٤٦ / ٤٣٧ ؛ ابن الوردي، ١٩٩٦، ١٦٨)

الخلاصة والنتائج

١–تعد ضيفة خاتون بنت الملك العادل الأيوبي من الملكات القلائل اللائي حكمن في التاريخ الاسلامي، ومع ذلك فان شهرتها اقل بكثير من شهرت نساء حكمن مثل شجر الدر جارية الملك الصالح نجم الدين أيوب.

٢-قام الملك العادل الأيوبي بالسيطرة على كل ممتلكات اولاد اخيه صلاح الدين باستثناء حلب التي بقيت بأيدي الملك الظاهر ابن صلاح الدين، فحاول العادل كسب وده بتزويجه من ابنته غازية خاتون. وبعد وفاتها زوجه ابنته الاخرى ضيفة خاتون

٣-رفض العادل تزويج ابنته ضيفة مع أنها بلغت الـ٢٨ سنة منتظرا أن يقوم الملك الظاهر بخطبتها، وخطبها بالفعل وعقدت الزيجة عام ٦٠٩ هـ/١٢١٢ م.

٤-حظيت ضيفة بمكانة كبيرة لدى زوجها الملك الظاهر لكنها فوجئت بوفاته بعد نحو ثلاثة أعوام من زواجهما. وعندما توفي تولت بالتعاون مع الأتابك طغرل في وضع صعب ودقيق لكي تبقي البلد لابنها الصبي الملك العزيز، بعد أن أيد بعض الحلبيين تسليم حلب للملك الأفضل ابن صلاح الدين.

٥-نجحت ضيفة في ترتيب العلاقات الخارجية مع والدها واخوتها الذين حكموا مصر والجزيرة وبلاد الشام لكي تضمن بقاء ولدها العزيز في الحكم، ولجأت الى المصاهرة السياسية عندما زوجته ابنة اقوى الملوك الايوبيين وهو الملك الكامل صاحب مصر.

٦-تعرضت ضيفة الى هزة جديدة عندما توفي ولدها العزيز عام ٦٢٩ هـ/١٢٣١م وولده الناصر يوسف ما يزال طفلا، فحتم عليها ذلك ان تعود الى واجهة الأحداث من جديد، وتتولى الوصاية مباشرة على حفيدها.

٧-حافظت ضيفة على عرش حفيدها الملك الناصر، فكانت حلب المدينة الوحيدة التي بقيت بايدي اسرة صلاح الدين

٨-أظهرت ضيفة حنكة سياسية كبيرة في ظل الصراعات التي كانت تنشب بين أبناء البيت الأيوبي، فنجحت في الوقوف في وجه أطماع أخيها الملك الكامل عن طريق الانضمام إلى الحزب المناوئ له الذي كان بقيادة أخيها الملك الأشرف

٩-أدت وفاة الملك الكامل عام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م الى انقاذ ضيفة وحلب من الوقوع تحت سيطرته، حيث حدث كبير في السياسة الايوبية تجاه حلب، إذ وقف ابنه الملك الصالح موقفا مناقضا من أبيه عندما اظهر ولائه لعمته واكد لها انه موال لها وأنه بأمرها وهمه الحفاظ على ملكها وملك حفيدها.

١٠-إن علاقة ضيفة بالملوك الأيوبيين مرت بعدة مراحل وتداخلت فيها مجموعة من المشكلات لكنها كانت تلزم بأهداف ثابتة وتتبع استراتيجية محددة وهي الحفاظ على حلب والبيت الصلاحي فيها ولتحقيق ذلك تبنت بعض الثوابت في سياستها معهم .

١١-توفيت ضيفة في عام ٦٤٠ هـ /١٢٤٢م عن عمر ناهز تسعة وخمسين عاماً، بعد ان اصبح حفيدها الناصر يوسف في عمر ثلاثة عشر عاماً. وتم إسناد الحكم له على الرغم من صغر سنه.

المصادر

-الحنبلي (١٩٧٩م) أحمد بن إبراهيم ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق: ناظم رشيد، بغداد، دار الحرية.

-ابن خلكان(١٩٦٨م) ابو العباس احمد بن محمد ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق: احسان عباس ، بيروت ، دار صادر .

-دعكور(٢٠٠٦) عرب ، الدولة الأيوبية تاريخها السياسي والحضاري ، بيروت ، دار المواسم للطباعة والنشر.

-ابن دقماق (١٩٩٩م) حارم الدين إبراهيم بن محمد بن ايدمر ، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق : سمير طبارة ، بيروت ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر.

-الدواداري (١٩٧٢م) أبي بكر بن عبد الله بن أيبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السابع المسمى بالدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب ، تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، دار احياء الكتب.

-أبو ذر سبط ابن العجمي (١٤١٧هـ) احمد بن ابراهيم بن محمد بن خليل، كنوز الذهب في تاريخ حلب، حلب، دار القلم.

-الذهبي (١٩٩٣ م) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي.

-الذهبي (١٩٨٥م) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : بشار عواد معروف ،١٩٨٥م .

-رنسيمان (١٩٨٠م) ستيفن ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة : الباز العريني ، ط٢ ، بيروت ، دار الثقافة .

-الزركلي (٢٠٠٢م) خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس ، الأعلام ، بيروت ، دار العلم للملايين.

-سبط ابن الجوزي (١٤١٧هـ) شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي ،مرآة الزمان في تواريخ الاعيان ، حيدر اباد ، مجلس دائرة المعارف العثمانية .

-السليفاني (٢٠٠٣م) مهدي صالح فرحان ، الملك المعظم عيسى الايوبي وحكمه لدمشق ٥٩٢-٦٢٤ هـ / ١١٩٥ - ١٢٢٧م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة الموصل .

-أبو شامة (١٩٩٧م) أبو القاسم شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، تحقيق : إبراهيم الزيبق، بيروت ، مؤسسة الرسالة.

-ابن شداد (١٩٥٣م) أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق : دومينك سورديل ، دمشق ، المعهد الفرنسي .

-الصائغ (١٩٨٨م) ذكرى عزيز ، عصر الملك الكامل الأيوبي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الموصل.

-الصفدي (٢٠٠٠م) صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله ، الوافي بالوفيات ، تحقيق : أحمد الارناؤوط وتركي مصطفى ، بيروت ، دار احياء التراث .
-الطائي(٢٠٠٩م) سجى مشعل رشيد، النساء الأيوبيات ودورهن الحضاري في بلاد الشام في العصر الأيوبي ، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل.
-عباس (١٩٩٨م) احسان ، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك ، عمان ، الجامعة الأردنية .
-عبد الرحمن (١٩٩٧م) خالد سليمان حمد ، إدارة بلاد الشام في العصر الأيوبي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، قدمت إلى مجلس الدراسات العليا، الجامعة الأردنية.
-ابن العديم (١٩٦٨م) كمال الدين عمر بن احمد ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق: سامي الدهان، بيروت، المطبعة الكاثوليكية.
-العليمي (٢٠١١م) مجير الدين عبد الرحم بن محمد بن عبد الرحمن، التاريخ المعتبر في أنباء من غبر، تحقيق لجنة مختصة من المحققين، سوريا، دار النوادر.
-العمري (١٩٦٦م) ياسين بن خير الله ، مهذب الروضة الفيحاء في تواريخ النساء ، تحقيق : رجاء محمود السامرائي ، بغداد ، دار الجمهورية .
-عيسى (١٩٩٩م) علي نجم ، حلب في العهد الأيوبي، دراسة سياسية وحضارية، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، مقدمة إلى مجلس كلية الآداب، جامعة الموصل.
-الغزي (١٤١٩هـ)كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، حلب، دار القلم.
– الغساني (١٩٧٥م) أبو العباس عماد الدين اسماعيل ، العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق : شاكر محمود عبد المنعم ، بغداد ، دار البيان.
-أبو الفداء (د.ت)عماد الدين إسماعيل ، المختصر في أخبار البشر ،القاهرة ، المطبعة الحسينية المصرية ، د.ت.
– ابن فضل الله العمري(١٤٢٣هـ) أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي، المجمع الثقافي.
– فلح (٢٠١٣م) محمد يونس ، الملك الصالح نجم الدين أيوب وعلاقته بالقوى السياسية ٦٣٨- ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠- ١٢٦٠ م ، مجلة كلية العلوم الإسلامية، العدد ١٣، مجلد ٧ .
-القلقشندي (١٩٨٥م) أحمد بن علي بن أحمد، مآثر الاناقة في معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، ط٢،الكويت،مطبعة حكومة الكويت.
-ابن كثير (١٩٨٨م) ابو الفداء اسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي.
-المقريزي (١٩٩٧م) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، بيروت ، دار الكتب العلمية .
-المقريزي (٢٠٠٦م) تقي الدين، المقفى الكبير، تحقيق: محمد اليعلاوي، ط٢، بيروت،دار الغرب الإسلامي.

-النعيمي (١٩٩٠م) عبد القادر بن محمد ، الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق : ابراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت .

-النويري (١٤٢٣هـ) أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم ، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية.

-ابن واصل(١٩٥٧م) جمال الدين محمد بن سالم ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة ، المطبعة الاميرية .

-ابن الوردي(١٩٩٦م) عمر بن مظفر بن عمر بن محمد، تاريخ ابن الوردي، بيروت، دار الكتب العلمية.

-اليونيني (١٩٩٢م) قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد ، ذيل مرآة الزمان،ط٢ ،القاهرة، دار الكتاب الإسلامي.

References:-

Abbas (1998) Ihsan, The History of the Levant in the Mamluk Era, Amman, University of Jordan.

- Abdel Rahman (1997) Khaled Suleiman Hamad, Administration of the Levant in the Ayyubid Era, unpublished doctoral thesis, submitted to the Council of Graduate Studies, University of Jordan.

- Abu Al-Fida (N.D. Imad Al-Din Ismail, Al-Mukhtasar fi Akhbar Al-Bishr, Cairo, Al-Husseiniyah Al-Misriyah Press, D.T.

- Abu Shama (1997) Abu al-Qasim Shihab al-Din Abd al-Rahman bin Ismail bin Ibrahim, Kitab al-Rawdhatain fi Akhbar al-Dawlat al-Nouriya wa al-Salihiyya, edited by: Ibrahim al-Zaybak, Beirut, Al-Resala Foundation.

- Al-Alimi (2011) Mujir al-Din Abd al-Rahm bin Muhammad bin Abd al-Rahman, The Considered History in News from the Gone, investigated by a specialized committee of investigators, Syria, Dar al-Nawader.

- Al-Dawadari (1972) Abu Bakr bin Abdullah bin Aybak, The Treasure of Pearls and the Jami' al-Ghurar, the seventh part called "Al-Durr al-Mutawab fi Akhbar Mukul Bani Ayyub", edited by: Saeed Abdel Fattah Ashour, Cairo, Dar Ihya' al-Kutub.

- Al-Dhahabi (1993) Shams Al-Din Muhammad bin Ahmed bin Othman Al-Dhahabi, The History of Islam and the Deaths of Celebrities and Notables, edited by: Omar Abdel Salam Tadmurri, Beirut, Dar Al-Kitab Al-Arabi.

- Al-Ghassani (1975), Abu Al-Abbas Imad Al-Din Ismail, the cast iron and the woven jewels in the classes of caliphs and kings, edited by: Shaker Mahmoud Abdel Moneim, Baghdad, Dar Al-Bayan.

- Al-Ghazi (1419 A.H. Kamel bin Hussein bin Muhammad bin Mustafa Al-Halabi, Nahr Al-Dhahab fi Tarikh Aleppo, Aleppo, Dar Al-Qalam.

- Al-Hanbali (1981) Ahmed bin Ibrahim, Healing of Hearts in the Virtues of Banu Ayyub, edited by: Nazim Rashid, Baghdad, Dar Al-Hurriya.

- Al-Maqrizi (1997) Taqi al-Din Ahmed bin Ali bin Abdul Qadir, Behavior to Know the Countries of Kings, edited by: Muhammad Abdul Qadir Atta, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.

- Al-Maqrizi (2002) Taqi al-Din, al-Muqaffa al-Kabir, edited by: Muhammad al-Yalawi, 2nd edition, Beirut, Dar al-Gharb al-Islami.

- Al-Naimi (1990) Abdul Qadir bin Muhammad, the scholar in the history of schools, edited by: Ibrahim Shams al-Din, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah, Beirut.

- Al-Nuwayri (1423) Ahmed bin Abdul-Wahhab bin Muhammad bin Abdul-Daim, Nihayat al-Arb fi Fanun al-Adab, Cairo, Dar al-Kutub and National Documents.
- Al-Omari (1966) Yassin bin Khair Allah, Muhadhdhab Al-Rawdah Al-Fayhaa in the History of Women, edited by: Raja Mahmoud Al-Samarrai, Baghdad, Dar Al-Jumhuriya.
- Al-Qalqashandi (1985, Ahmed bin Ali bin Ahmed, Feats of Elegance in the Landmarks of the Caliphate, edited by: Abdul Sattar Ahmed Farraj, 2nd edition, Kuwait, Kuwait Government Press.
- Al-Safadi (2000) Salah al-Din Khalil bin Aibak bin Abdullah, Al-Wafi bi al-Wafiyat, edited by: Ahmed Al-Arnaout and Turki Mustafa, Beirut, Heritage Revival House.
- Al-Sayegh (1988) Zikra Aziz, The Era of King Kamil Al-Ayyubi, unpublished master's thesis, College of Arts, University of Mosul.
- Al-Sulaifani (2003) Mahdi Saleh Farhan, The Great King Isa al-Ayyubi and his rule of Damascus 592-624 AH / 1195-1227 AD, unpublished master's thesis, College of Education, University of Mosul.
- Al-Taie (2009) Saja Mishal Rashid, Ayyubid women and their cultural role in the Levant in the Ayyubid era, unpublished master's thesis, College of Arts, University of Mosul.
- Al-Yonini (1992) Qutb al-Din Abu al-Fath Musa bin Muhammad, Dhail Mirror of Time, 2nd edition, Cairo, Dar al-Kitab al-Islami.
- Al-Zirkli (2002) Khair al-Din bin Mahmoud bin Muhammad bin Ali bin Faris, Al-A'lam, Beirut, Dar Al-Ilm Lil-Malayin.
- Daakour (2006) Arabs, The Ayyubid State, Its Political and Civilizational History, Beirut, Dar Al-Mawasem for Printing and Publishing.
- Falah 2013) Muhammad Yunus, The Righteous King Najm al-Din Ayyub and his relationship with the political forces 638-647 AH / 1250-1260 AD, Journal of the College of Islamic Sciences, No. 13, Volume 7.
- Ibn al-Adim (1968) Kamal al-Din Omar bin Ahmed, Butter of the Milk from the History of Aleppo, edited by: Sami al-Dahan, Beirut, Catholic Press.
- Ibn Al-Ajami (1417 A.H.) Ahmed bin Ibrahim bin Muhammad bin Khalil, Treasures of Gold in the History of Aleppo, Aleppo, Dar Al-Qalam.
- Ibn al-Wardi (1996) Omar bin Muzaffar bin Omar bin Muhammad, History of Ibn al-Wardi, Beirut, Dar al-Kutub al-Ilmiyyah.
- Ibn Fadlallah Al-Amri (1423), Ahmed bin Yahya bin Fadlallah Al-Qurashi, Paths of Vision in the Kingdoms of Al-Amsar, Abu Dhabi, Cultural Complex.
- Ibn Kathir 1988) Abu Al-Fida Ismail bin Omar, The Beginning and the End, edited by: Ali Sheri, Arab Heritage Revival House.
- Ibn Shaddad (1953) Izz al-Din Hamad bin Ali bin Ibrahim, Dangerous Relationships in Mentioning the Emirs of the Levant and the Peninsula, edited by: Dominique Sordel, Damascus, French Institute.
- Ibn Wasil (1997) Jamal al-Din Muhammad bin Salem, Mufarrej al-Karub fi Akhbar Bani Ayoub, edited by: Jamal al-Din al-Shayyal, Cairo, Al-Amiriya Press.
- Issa (1999) Ali Najm, Aleppo in the Ayyubid Era, a political and civilizational study, unpublished doctoral thesis, submitted to the Council of the College of Arts, University of Mosul.
Al-Dhahabi (1985) Shams al-Din Muhammad bin Ahmed bin Othman al-Dhahabi, Biographies of Noble Figures, edited by: Bashar Awad Marouf, 1985 AD.

Ibn Duqmaq (1999) Sarim al-Din Ibrahim bin Muhammad bin Aidmar, Nuzhat al-Anam in the History of Islam, edited by: Samir Tabbara, Beirut, Modern Library for Printing and Publishing.
Ibn Khalkan (1968) Abu Abbas Ahmed bin Muhammad, Deaths of Notables and News of the Sons of the Age, edited by: Ihsan Abbas, Beirut, Dar Sader.
Renciman (1980) Stephen, The History of the Crusades, translated by: Al-Baz Al-Arini, 2nd edition, Beirut, House of Culture.
Sibt of Ibn al-Jawzi (1417) Shams al-Din Abu al-Muzaffar Yusuf bin Qazawghli, Mirror of Time in the History of Notables, Hyderabad, Council of the Ottomania Encyclopedia.